

تاریخ التصوف الإصلاحی فی شبه القارة الهندية

ونماذج من المصلحین من المتصوفة

History of reformative Mysticism & Some model Mystics of the Sub-Continent

الدكتور احمد جان*

ABSTRACT

Sufism/mysticism has played a vital role in preaching of Islam throughout the world especially in the sub-continent. The great Sufi Scholars influenced the moral and social behavior of the people of Sub continent.

The discussion in this article deals with the role of Sufism in bringing moral and social revolution among the people of Sub-continent. The great Sufis of Sub-continent including Ali bin Usman Hajwari and Moin-ud-Din Chishti spread the peaceful message of Islam all over India. These great Sufis followed the pure Sufism based on Islamic Shariah which brought a great change in Indian Society especially their moral behavior.

Keywords: Sufis, Social revolution, Moral change, Islamic Shariah, Preaching of Islam.

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم على المؤمنين بنعمة القرآن ونعمه السلوك المستقيم والصلة والسلام على رسولنا الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الحديث من تاريخ التصوف في شبه القارة الهندية ذو شجون وأحزان فقد وضع علماء الشريعة والتزكية الروحية والنساك أقدامهم على أرض الهند فوجدوا مشاكل وعراقل كثيرة

* رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية الجامعية الإسلامية بإسلام آباد

في سبيل الدعوة الإسلامية غير أنهم يهمهم العالية وعزائمهم الصادقة زللوا الصعاب وصبروا وصابروا. في المجتمع الهندي حتى هداهم الله للإسلام على أيدي هؤلاء العلماء في حين إن حكام المسلمين في الهند لم يفعلوا شيئاً للإسلام وصالح الدعوة وإلا لما بقي في الهند هندوسي وبودي واحداً أبداً.

فقد قدم الدعاة المتصوفة من بلاد خراسان من تلاميذ كبار النساك الصوفية في بلاد الترك والأفغان ونور قلوب أهل الهند بالإيمان. ومثل هذه الجهود المضيئة في تاريخ الإصلاحي الروحي أقدم هذا البحث المتواضع وقسمته إلى عدة نقاط.

أولاً: تعريف التصوف وأهميته.

ثانياً: تاريخ التصوف كمبدأ للإصلاح في الهند عقائدياً وعملياً وخلقياً.

ثالثاً: نبذة عن علماء التصوف والسلوك في بلاد خراسان وكيف وصل تلاميذهم إلى الهند.

رابعاً: نماذج من المصلحين النساك الزاهدين من المتصوفة.

فقد نماذج من جلائل أعمال هؤلاء النساك في الهند حيث تأثر على المجتمع الهندي واهتدوا للإسلام ملايين البشر على أيديهم ورفعوا راية الإسلام في أكناfe الهند واصلحوها ما فسدة من الأوضاع الداخلية في المسلمين وما دخلت في الإسلام من الوثنيات والبدعات.

خامساً: وما زال عصرنا هذا في حاجة إلى التصوف السني الإصلاحي البعيد عن الشحتات والخرافات فإن التصوف الإسلامي ما زال ولم يزل يعالج الأمراض الباطنية وأرجاس النفسية.

سادساً: يجب أن نفرق بين التصوف الإسلامي ونسانده ونستفيد من فيضاته. وبين التصوف الخرافي المختلط من الأفكار الهندوسية والفلسفات الوثنية ولا يجوز الخلط بينهما

وجعلهما في سلة الزبالة بدون تحقيق وتدقيق حيث إن التصوف الإسلامي من الشريعة وخير وسيلة للوصول إلى قلوب التائهين، وبالله التوفيق.

المدخل: إن التصوف الإسلام والسلوك الصوفي له حذرور تاريخية عبر التاريخ الإسلامي. وكان له أكبر الأثر في توجيهات المسلمين الفكرية والعملية والتبعيدية والأخلاقية، والتصوف الإسلامي ليس غريباً عن الإسلام، فقد اجتهد علماء التصوف مشائخه في إصلاح النفوس والقلوب علمياً وعملياً ودونوا لذلك معارفهم وعلومهم في مجال العبادات والأخلاق وكما وضعوا مناهجهم في السلوك ومعالجة أمراض القلوب وعلل النفوس ونواع الخير والشر وأنوار الذكر والطاعة، مستهدفين برسالتهم القلب والروح والوجدان وسلوك الإنسان وفي طريقه إلى الله وفي طريقة إلى الحياة قاموا بالمحافظة على روح الإسلام.

قاموا ليجعلوا من المثاليات العليا معراجاً رمانياً ومنهجاً إنسانياً، يصنع الإنسان الكامل ويصوغ المؤمن القوي العزيز الصالح للبقاء وللحياة ولخلافة الأرض الذي خلقه الله تعالى عليها ليكون جديراً به سبحانه وجديراً بما أصبح عليه من قوة هائلة سخرت لها ما في السموات وما في الأرضين.

ويقول الشيخ الأكبر الإمام محي الدين بن عربي لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين، وإنما هو فهم يعطى في القرآن لرجال الله وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة، كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وقد تعددت طرق الصوفية ومناهجها في الإصلاح حسب الزمان والمكان، وهذه الطرق التي هيئت الجماهير واحتفظت بإيمانها وأخلاقها وصانتها من التفكك والإنهيار وأصبحت هذه الطرق مصابيح مضيئة وشعل متوهجة الحجة الهمادة والواحة الحصبية الضليلة التي تمنع الأمان والإباء والإطمئنان للجيارى والضالين والمتبعين فالتصوف الإسلامي هو الذي احتفظ بالعلم الإسلامي والخلق القرآني والمجرى النبوىء

وأسس في كل مكان المساجد والملاجئ والمعاهد والزوايا لطلاب العلم ولطلاب الحياة. والتصوف هو الذي قام بنشر الإسلام وحمل رايته إلى كل مكان وكسب له الملايين، وأسس الدول المرابطين والموحدين لنجد الأندلس وحماية المغرب العربي، وفتكات الفراصنة النائبين.^(۱)

يقول المستشرق ماكس مller وفي جبال الهند وغابات أندونيسيا وفوق الرمال الذهبية في البلاد العربية وفي أحراش أفريقيا وذرى جبال الأطلس وجفاف الأنهر وفي أعماق القرى وفي كل مكان هنا وهناك في القرارات الإسلامية يشاهد الإنسان أينما اتجه أبناء الطرق الصوفية بسمتهم وشعائرها ومحاسنهم وفنائهم العجيب في الإيمان بدينهم.

تعريف التصوف:

التصوف إتجاه ديني من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، كما يقول ابن خلدون وقد وصف الحجيد البغدادي "بأن التصوف ذكر مع إجتماع ووجد مع إستماع وعمل مع إتباع" وعرفه الجزيري بأن "التصوف مراقبة الأحوال، ولزوم الآداب"^(۲) إذن التصوف هو بذل الجهد في تحذيب النفس للارتفاع بما إلى مستوى الأكمل ويقول الإمام السراج الطوسي في اللمع "إذا قيل لك الصوفية، من هم؟ في الحقيقة؟ هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله المتتحققون بما استعملهم الله الواجدون بما تحققوا فإن سألي سائل قد نسبت أهل الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه فلما قلت الصوفية من تسبهم إلى حال ولا إلى علم، قلت بأن الصوفية لم ينفردوا بعلم من العلوم. أو بنوع دون نوع بأنهم معدن لجميع العلوم وحمل جميع أحوال المحمود والأخلاق الشريفة.^(۳)

إذن التصوف من حيث هو ظاهرة سلوكية تعبدية أصلية في الإسلام وغاية من غايات المبادئ الإسلامية التي أرادت أن تصوغ الإنسان صياغة زمانية متوازنة، ولذلك نجد آثار التصوف الإسلامي في كل مكان، وهولاء الصوفية وأتباعهم خدموا الإسلام والمسلمين

في كل مكان، وأصلحوا البلاد والعباد بأخلاقهم النبيلة وصدق اللهجة والتود دعم مريديهم والإخلاص مع المترددين عليه وشيدوا المساجد والزوايا والملاجئ والمستودعات للغلال وإيواء للمهتدين والمدارس التعليمية والتربوية لتكوين شخصياتهم وتنقيفهم بالثقافة الإسلامية وأصبحت هذه الزوايا منارات لنشر الدعوة الإسلامية والمثل العليا والسلوك والتعامل، ولذلك بدأ الناس يهربون إلى التكايا والزوايا الصوفية للبحث عن شفاء أمراضهم الروحية والجسدية. وهذا الذي جعلني أن أتحدث عن العنصر الصوفي في الإصلاح في شبه القارة الهندية كما أضرب مثالاً كنماذج من المصلحين المتصوفة وخدماتهم في هذا البقاع.

تاریخ التصوف في الإصلاح في شبه الهندية ونماذج المصلحين المتصوفة:

لم يكن الصوفية الأوائل رهباناً، وإنما اندرجوا في الحياة أندماجاً قوياًً أمروا بالمعروف ونحوها عن المنكر وقاوموا الفساد ودعوا إلى الجهاد ووقفوا أمام الجبابة، يصمود وكانت صرحاً للزهد الأوائل ثورات إسلامية عارمة على الإنحراف، والزيف، والإستبداد، والطغيان، فكانوا في ذلك يمثلون القوة الملهمة للبقاء والتضحية والدرع الذي يحمل الأخلاق والعقائد والإيمان والوطن واستطاع التصوف الإسلامي في أيام إزدهاره أن ينتشر الدعوة الإسلامية و يجعلها عالمية بدون سلاح وغزو، فهو الذي حمل نورها وهداها إلى أرجحيل ملاموا والفلبين والصين وقلب أفريقيا وغرتها إضافة إلى شبه القارة الهندية والسيلان، وكان بغداد في أواخر القرن السابع الميلادي والثاني الهجري في عصر الخليفة هارون الرشيد العباسي المتوفي ١٩٣ هـ مركزاً تجارياً عظيماً، وسوقاً تجارياً رائحاً تنهال عليها البضائع رائحة، تنهال عليها البضائع والأموال من ثوب.⁽⁴⁾

فكان التجار من الفرس والخراسان والهند يتقددون على بغداد كما كان تجار العرب يتوجهون بقوافل التجارية إلى الهند وجزر الهند الصينية. حتى إنهم قد سيطروا على تجارة بحر الهند في قرن التاسع الميلادي الثالث الهجري، فانتشر الإسلام في الهند عبر الطرق

التجارية، وانتقلت على الأيديهم الآراء التنسكية (الصوفية) مع البضائع التجارية إلى جنوب الهند، كما وصل الإسلام من خلال الفاتحين العرب فقد فتحت غربى الهند على يد القائد الإسلامي محمد بن قاسم الثقفي عام ٩٣ هـ، وأصبح جزءاً من الخلافة الإسلامية وبنو عاصمه إسلامية باسم منصورة في سنته وانتشر الإسلام على أيدي دعاة الإسلام وتبعهم أصحاب السلوك والطريقة وكانت لهم أيدى بيضا على أهل سنته، حيث جذبواهم إلى الإسلام رضا واقتناعاً، وهذه الجهود كانت فردية ومتقطعة حتى جاء الفاتح الإسلامي محمود الغزنوي من البوابة الشمالية للهند وأغار عليها سبعة عشر مرة تلو أخرى حتى وصل إلى العاصمه دلهي فواصل فتوحاته حتى تم له النصر وقضى على ملوك الهند وحطموا الأصنام والمعابد الهندوسية، وبنى مكانها مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى وتوفي في صفر سن ٤٢٢ هـ.^(٥)

وجلب محمود الغزنوي معه جمّاً غفيراً من العلماء والفقهاء وأهل التصوف والعرفان للهند حيث كان محبًا للعلم وكان في طليعة الذين جاءوا للهند والبيروني والفارابي والبيهقي والشاعري، وكان من بينهم كبار علماء الطريقة من تلاميذ النساء الأفغان الذين لهم الفضل في الإصلاح ونشر الدعوة الإسلامية في خراسان وماوراء النهرأمثال إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفي سنة ٦١ هـ ومن تلاميذ شقيق البلخي ١٩٤ هـ ومن تلاميذ حاتم الأصم البلخي ٢٣٧ هـ وفضيل بن عياض الخراساني ١٨٧ هـ ومن تلاميذ عبدالله بن مبارك المروزي ١٨١ هـ ومن تلاميذ أبو علي جوزجاني وأبو اليزيد البسطامي ٣١٩ هـ ومحمد بن فضيل البلخي ١١٣ هـ ومن تلاميذ معروف الكرخي المتوفي ١٦١ هـ وقد نرج تلاميذ وأتباع هؤلاء النساء أصحاب الطريق إلى الهند ضمن الجيوش الإسلامية أو القوافل التجارية فمكثوا وانتشروا في البلاد وحملوا لواء الإصلاح والدعوة الإسلامية في ربوع الهند.

والخلاصة أن الإسلام والدعوة الإسلامية تقدمت وتخللت في الهند عن ثلاثة مجاور، عن الغرب عن طريق الفتوحات الإسلامية العربية بقيادة محمد بن قاسم المتوفي ٩٨ هـ ومن شمال بيده محمود الغزنوي ومن الجنوب بجهود تجار المسلمين، غير أن فتوحات محمود

الغزوی للهند كانت حدثاً تاریخیاً هاماً، كان له الأثر الفعال في دفع عجلة الدعوة الإسلامية إلى لإمام في الهند والملائكة. وقد وجدت الدعوة الإسلامية طاقة بشیطة اعطت لها قوة للإندفاع إلى الأمام وهذه الطاقة هي طاقة التصوف الذي بدأ ينموا في الهند بظهور الصوفية المحليين الكبار المسلمين بالعلم والصلاح الباطن والتربية والطريقة والسلوك وقد انتشر الإسلام على أيديهم في حين بدأ الحكام والأمراء يبذلون جهودهم في توسيع رقعة دولتهم ونفوذهم. يولون ظهرهم إلى الدعوة الإسلامية وفي كثير من الأحيان كانوا يقفون في طريق بنشر الإسلام طمعاً في تأييد الهندوس لكيان دولتهم، فقد أخذ هؤلاء العلماء الصوفية والرهاد والنساك من دعاة المسلمين نشر الدعوة الأممية وإصلاح الناس على عاتقهم خلقياً وتربوياً لأهالي الهند على حد سواء وتأثر بأنحصارهم وصفاتهم الحميدة وتعاملهم الإسلامي القائم على العدل والمساوات بين الناس تطبيقاً لقول الله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا حَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكْرٍ وَأَنْشَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁽⁶⁾ ومتى لقول النبي ﷺ ((كلكم من آدم وآدم من تراب و في رواية الناس بنو آدم وآدم من تراب⁽⁷⁾ وكما قال النبي ﷺ " يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتفوى))⁽⁸⁾ فهذا المبدأ الإسلامي العظيم طبقها العلماء الصوفية عملياً في الهند فأصبح زواياهم متقدسة بال المسلمين والهندوس والمبوذين باحثين لديهم الرشد والغلال والنجاة إلى حياة أفضل في الدنيا والآخرة، ومن بين هؤلاء النساك الزاهدين الذين لهم الجهود الجبارية في إصلاح المجتمع الهندي المشكل من المسلمين والهندوس والبوذيين والمبوذين، فأصبحت هذه الزوايا إشعار نور أنارت به أرجاء الهند.

نماذج من المصلحين الراهدين المتصوفة:

ومن أبرز هؤلاء الزهاد:

أولاً : الشیخ علي بن عثمان الحجویری ت ٤٦٥ هـ ودفن في مدينة لاهور في باکستان

الحالیة، وکان عالماً وفقیهاً وزاهداً من کبار رحال العلم والمعرفة والصلاح حمل لواء الدعوة فی ربوع الهند، وکان يرد على المتصوفین الذين ينخدعون من التصوف ذريعة لارتكاب البدع والمنكرات وله كتاب شهير في ذلك باسم "الكشف المحجوب" وترجم إلى اللغة العریبة وإلى اللغات العالمیة أخرى، وقد اهتدی إلى الإسلام آلاف مؤلفة من الناس فانخرطوا في بوطة الإسلام زاهدین أتقياء وصلحاء القائمین بإصلاح المجتمع الهندي وأخذهم إلى بر الأمان.^(٩)

ثانياً: الشیخ خواجه معین الدین الششتی بن غیاث الدین السنجری الأجمیری الذي قدم من أفغانستان ضمن جیوش سلطان شهاب الدين الغوری في القرن السادس المھرجی. ثم انتقل إلى مدينة أجمیر بولايات راجستان غرب الهند، وبدأ عن طريق التصوف والأخلاق الإسلامية ونشر الدعوة الإسلامية بين الهندوس، وأسلم على يديه مئات الآلاف من الهندوس وأصبح له شعبية كبيرة بين أوساط الفقراء والقطيعات المستضعفة من المجتمع وتوفي سنة ٦٢٨ هـ وأصبح ضریحة مركزاً لزيارة المسلمين والهندوس على حد سواء، وكان الشیخ معین الدین یحب الفقراء حيث كان زاهداً في الدنيا، ووزع ماله على الفقراء وعاش حیاة النساء وحال البلاد، ثم قنده، وبخاری في طلب العلم كما زار المدينة ثم عاد إلى الهند واستقر في أجمیر، وكانت رسالته تتركز على عالمیة الحب وضرورة أن یسود السلام البشریة من دون نظر إلى عقیدة وجنس أو طائفة، وكان الحكماء والملوك سواء المسلمين والهندوس یداومون على زیارة شیخ معین الدین یلجهون إليه حل خلافهم وقضاياهم. وعندما توفي الشیخ معین الدین عن عمر يناهز ٩٧ سنة شيد الضریح فوق مدفنه ويقام فيه التجمع السنوي في ١٠ سبتمبر يحضر الملائكة من أتباعه بغض النظر عن معتقدات الدينية، ويختلفون به سنوياً، إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن المنهج الصوف أقصر الطريق إلى قلوب غير المسلمين وإهداهم إلى الإسلام كما فعل أسلافنا الكرام وبعد وفاته تبعة تلميذه الخاص هو.

ثالثاً: قطب الدين بختار كاكبي:

ولد قطب الدين بختار كاكبي في فرغانه في ماوراء النهر وتلمند على يد الشيخ الأجير وهو حاجر معه إلى الهند واستقر في دلهي، وعم فيضه ونما فضله وكثير خيره، للأمير والفقير على حد سواء وتوفي هناك.^(١٠)

رابعاً: فريد الدين كنج شكر ولد في مدينة لاهور سنة ٥٥٦٩ هـ وتلمند على يد الشيخ قطب بن بختيار الكعكي ثم انتقل إلى "ملتان" وكان صوفياً زاهداً تقىً ورعاً قام بنشر الدعوة الإسلامية في الهند وتلمند على يديه نخبة ممتازة من الدعاة وأهل الطريقة أمثال مخدوم علاء الدين صابر وقطب الدين بانسوبي والشيخ خواجة بهاء الدين ملتاني والشيخ منتخب الحق وكانوا جميعاً من دعاة الإسلام ومن كبار الصوفية آنذاك.

خامساً: ومنهم الشيخ بهاء الدين زكريا ملتاني المتوفي ٦٦٦ هـ وعاش مائة سنة عارفاً وعالماً وزاهداً وداعياً في "ملتان" والهند حتى ألقى عليه لقب سلطان الأولياء في الهند وله ضريح في ملستان وأقيمت جامعة حكومية باسمه تقديراً لجهوده في مجال الدعوة والتبلیغ.

سادساً: نظام الدين أولياء البدايوني فولد في سنة ٦٣٦ هـ وكان من كبار الناسك وأهل المعرفة والدعوة وكان يجمع بين الفقراء والأغنياء والعصابة والمذنبين والعلماء المتقين في مجلس واحد ويلقنهم دروس التوحيد والتركية وجهز قوافل الدعوة حملوا لواء الدعوة الإسلامية في ربوع الهند ومن أبرز هؤلاء شمس الدين يحيى، نصير الدين محمود، قطب الدين بانسوبي وحسام الدين ملتاني، والشيخ فخر الدين زرادي، وعلاء الدين فيلي، والشيخ برهان الدين غريب، وسراج الدين آخر، والشيخ شهاب الدين، والشيخ نصر الدين شراغ.^(١١)

سابعاً: شاه كليم الله جهان آبادي:

ولد سنة ١٦٥٠ م وكان عصره عصر الانحطاط والخمول والطوابق الملكية وقد تضاءلت شموع الدعوة الإسلامية وانتشر البدع في الصوفية فقام وأخذ العلوم، والطريقة من الشيخ

يجي المدیني في المدينة المنورة، وعاد إلى الهند وحمل راية الدعوة الإسلامية والسلوك وتصدى للبدع والتقاليد الواقفة على التصوف حتى أزاح الشهـات عن ساحتـه وتوفي سنة ١٧٣٩ م.

ثامناً: الشيخ شرف الدين يحيى المنيري قـم بإصلاح التصوف من غلو الغالـين وتحـريف المتـحلـين والـتمـ الشـريـعـة والـطـرـيقـة في دعـوـته وسلـوكـه وقرـرـ أنـ منـ خـالـفـ الشـريـعـة فـهـوـ مـلـعونـ تـوـقـيـتـةـ سـنـةـ ١٧٨٧ـ هـ.

تاسعاً: خواجة باقي بالله ولد في أفغانستان سنة (١٩٧٥ - ١٥٦٤) ثم هاجر إلى الهند وأخذ الطريقة والسلوك من الشيخ قطب العالم ثم بعثه إلى بخارى فعاد مرة أخرى وأخذ على عاتقه إحياء السنة وأماتـهـ الـبدـعـ وكانـ يـتصـدىـ لـأـعـدـادـ الـإـسـلـامـ بـكـلـ قـوـةـ وـعـزـمـ وـتـلـمـذـ عـلـىـ يـدـيهـ جـمـاعـةـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالأـمـرـاءـ وـطـلـبـةـ الـعـلـمـ قـامـواـ بـدـفعـ عـجـلـةـ الـدـعـوـةـ إـلـىـ الـأـمـامـ وـتـوـقـيـتـةـ سـنـةـ ١٦٠٣ـ مـ.

عاشرًا: الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوـيـ: ولـدـ سـنـةـ ١٥٥١ـ مـ وـتـرـعـيـ فيـ أـسـرـةـ عـلـمـيـةـ حـتـىـ نـمـ فـضـلـهـ وـأـصـبـحـ مـنـ كـبـارـ عـلـمـاءـ الـحـدـيـثـ وـالـتـصـوـفـ فيـ الـهـنـدـ وـهـوـ الـذـيـ أـحـيـاـ عـلـومـ الـحـدـيـثـ بـالـهـنـدـ وـرـبـطـ الـصـلـةـ بـيـنـ عـلـومـ الـقـرـآنـ وـالـسـنـةـ وـتـصـدـىـ لـلـفـرـقـ الـبـاطـنـيـةـ الضـالـةـ وـالـمـتـصـوـفـةـ الـمـنـحـرـفـينـ عـنـ الـخـطـ إـلـيـهـ الصـحـيـحـ وـدـرـسـ عـلـومـ أـكـثـرـ مـنـ نـصـفـ قـرـنـ وـتـخـرـجـ عـلـىـ يـدـيهـ كـبـارـ عـلـمـاءـ الـحـدـيـثـ، مـثـالـ إـلـاـمـ حـسـنـ بـنـ مـحـمـدـ الصـاعـانـيـ صـاحـبـ كـنـزـ الـعـالـمـ وـلـهـ عـدـدـ مـؤـلـفـاتـ فـيـ التـفـسـيرـ وـالـحـدـيـثـ وـالـتـصـوـفـ اـشـهـرـهـاـ أـشـعـةـ الـلـمـعـاتـ شـرـحـ الـمـشـكـاةـ وـمـدـارـجـ النـبـوـةـ تـوـقـيـتـةـ سـنـةـ ١٦٤٠ـ مـ. (١٢)

حادي عشر: الشيخ قطب الدين أحمد شاه ولي الله الـدـهـلـوـيـ (١٧٩٣-١٧٠٣ـ مـ)

أنـهـ حـلـ لـوـاءـ الـدـعـوـةـ وـالـجـهـادـ وـهـوـ إـمـامـ النـهـضـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ فيـ الـهـنـدـ وـمـؤـسـسـ الـحـرـكـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ وـورـثـهـاـ عـنـهـ اـبـنـاؤـهـ وـاحـفـادـهـ وـمـنـهـمـ عـلـمـاءـ مـدـرـسـةـ دـيـوبـندـ وـجـرـتـ عـلـىـ أـيـديـ هـؤـلـاءـ الـأـفـذاـذـ عـيـونـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ فيـ الـهـنـدـ وـالـبـاكـسـتـانـ وـحـوـلـهـماـ - وـمـسـحـ مـنـ جـبـينـ

التصوف آثار الماضي ونفني عن كاهله أثقاله وأحماله ومزق قيده وحطم الأسوار، والاغلال التي فرضتها عليه عهود الجمود والضعف والانحلال ويرزوا إلى ميادين الجهاد والحياة المشرقة فكانوا بحق رهباناً في الليل وفرساناً في النهار.

وبعد هذا العرض من أعمال التصوف الإسلامي ومناهجهم في التصوف وصلنا إلى هذه النتيجة أن مهجهم توفيقي يجمع بين التصوف الإسلامي الذي يدعو إلى الترکية النفس وتطهير الجنان من شوائب الأدران والآثام في ضوء القرآن والسنة وبين الحياة الاجتماعية والسنّة الحاربة في الكون وهي وجود السبب مع المسبب وأهمية السعي والعمل والإيتان إلى بيوت من أبوابها وطلب الأشياء من معدنها كما كان عليه السلف الصالح أمثال جلال الدين الرومي وختيار كعكي وجندى بغدادى وعلى هجوبي ومعين الدين أجيري وقد شهدت الهند والباكستان خلال القرن العشرين معارك فكرية ضارية بين بعض الطوائف الدينية وحاول كل فريق أن يجهز عن الآخر ويجعله خارجاً عن الإسلام، وهذا طور آخر من التصوف حيث دخلته الأوهام والخرافات على أيدي بعض الطالبين للشهرة والمكافأة وتلمساً لأسباب الرزق لإحداث العقائد المنسوبة إلى التصوف وهذا نوع من الصراع أحدث جروحاً لن تتمل في كيان الدعوة أما السلفية فهي تجعل التصوف كالدخل في الإسلام بأنها فكرة فلسفية ظهرت في الهند في الهندوسية والبوذية وغيرها حتى توافدت على الإسلام لتشويه العقيدة الإسلامية الخالصة. بينما تعتبر الصوفية البريلوية بأن كل ما نتمسك به ونقوم به باسم التصوف مشروع ومن صميم الإسلام وأن السلفية طائفة خارجة عن الإسلام، غير أن هناك مدرسة ثالثة، منسوبة إلى مدرسة ديبوند التزمت بموقف وسط بين المنكرين للتتصوف واللاعبين به واتخذ من التصوف ما يصلح ويفيد لترکية النفس وتذكرها ومعظمهم مرتبطين بطريقة صوفية نقشبندية أو قادرية بعيدين كل البعد عن البدعات والشطحات والتقاليد السيئة التي ترتكب باسم التصوف وانكروا على التصوف ما يفعله البعض من المغرضين من البدع والضلالات والتواكل وأكل أموال الناس السذاج بالباطل.

الصوفية فی میزان الشرع:

أولاً: إن الشعی میزان یوزن به الرجال، وبه یتیقн الربح من الخسران فممن رجع في میزان الشرع كان من أولياء الله وتحتفل مراتب الرجحان ومن نقص في میزان الشرع فأولئك أهل الخسران، تتفاوت خفتهم في المیزان فإذا رأیت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء ويخبر المغيبات ويختلف الشرع بارتكاب الحركات بغیر سبب محلل ويترك الواجبات بغیر سبب محظوظ فاعلم أنه شیطان نصبه الله فتنۃ للجهة^(۱۳) وهذا النوع من التصوف هو الذي یُدَمِّر ويقام على صاحبه نکیر وكذلك كما أحدثوه في التصوف من الرقص واللذة والأصوات والأنغام والوجود وغير ذلك مستحدثات في الدين يقول سهل بن عبد الله كل وجد لا یشهد له الكتاب والسنة فباطل ويقول الجنید: كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه والتتصوف عظمة نفیسة شاملة لا تعرف الكربلاء والغرور ويقول أبویزید البسطامي فإذا أحب الله عبداً أسبغ عليه صفات ثلاثة دليلاً على حبه سخاء كسخاء البحر، إحسان كإحسان المس، وتواضع كتواضع الأرض.^(۱۴)

ثانياً: الاقتصاد على الجانب الروحي وأهمي الجوانب الأخرى إنحراف كبير في الفهم والمنهج التربوي لأن الإسلام ليس نظاماً تعبدياً ولا شعائر تعبدية فقط بل نظام للحياة البشرية في شتى مظاهرها – يقول تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.^(۱۵)

ثالثاً: إن المتصوفة ما زالوا بعيدین عن كتاب الله وسنة رسوله دراسة وعلمأً في إطار ضوابطها الصحيحة وعلوم الأصول والفروع فهم لا يدرسوها ولا يستفيدون من كنوزها وبيالغون في فهم المعانی الباطنية فلقرآن الكريم فهذه المبالغات قادت كثير منهم إلى إحداث البدع والمنكرات والضلالات الخطيرة التي وصلت بعضهم إلى حد الزندقة والإلحاد والقول بالحلول والاتحاد وفكرة الاخلاء والإملاء متخذین في ذلك "من

الفلسفات الوثنية الهندية قديماً واسبينوزا حديثاً ومن الغنوصية المنحدرة من المسيحية والباطنية" نبراساً لتفكيرهم ومن هذا المنطلق يبدو واضحاً عجز الجماعات الصوفية عن مواجهة الجاهلية الحديثة ودحرها والصمود أمامها وبالتالي عدم أهليتها لتكون هي الجماعة التي يؤمن أن يرد الله بها كيداً أعداء الإسلام كما كان إسلامفهم علماء ربانيين صادقين في الزوايا، ومجاهدين في ساحة المعارك دفاعاً عن الدين والوطن يبني ويشيد وبيعث الطاقات المدخرة، ويحرك الهمم الفاترة للنهوض إلى فجر جديد وهذا الصنف من التصوف لا يد أن يعود مرة أخرى ليرفع راية الشريعة مع الطريقة عالية خفاقة في ربوع العالم.

الهوامش

١. التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضيه وحاضره مشيخة عموم طرق الصوفية، ص: ٢٥-٢٨ طبع دار الكتب العربي قاهرة مصر، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصوف الإسلامي لمحمد حسن، ص: ٥٣ ، ط دار البشير طنطا بمصر
٢. اللمع لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، ص: ٥٢
٣. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، لدكتورأحمد شبلي، ص: ٣ / ٤٧ ، دار النهضة القاهرة
٤. والتفصيل في نزهة الخواطر لعبد الحي الكهنوی ص: ١ / ٩٠ ، ط دهلي و حیدر آباد،
٥. الكامل لابن الأثير ص: ٤ / ٥٤ ، ط بولاق وتاريخ المسلمين في الهند لدكتور عبد المنعم النمر، ص: ٨٨ ، ط القاهرة
٦. سورة الحجارات، الآية : ١٣
٧. رواه أحمد في المسند (٨٧٣٦) وقال محققوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦).

٨. رواه البيهقي في الشعب باب في حفظ اللسان (٤/٢٨٩)، وقال: في هذا الإسناد بعض من يجهل، عن جابر، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره، ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وقال محققونه: إسناده صحيح، عن من سمع النبي، وقال الميثمي في مجمع الروايات: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣/٥٨٦).

٩. علي المحويري : كشف المحجوب: ترجمة إسعاد قنديل - بيروت ١٩٨٥.

١٠. مآثر الكرام في آثار هندوستان لآزاد بلجرامي ،ص: ٧ وما بعد ط دلهي وسير الأولياء لأمير خودر، ص: ٢٧ ، ط دلهي وراجع تاريخ الدعوة والعزيمة، للشيخ أبي الحسن الندوبي، ص: ٣٠ / ٣٠ ، دار التبشير القاهرة وباكستان

١١. أظر تاریخ فیروز شاهی ضیاء بری، ص: ٤٦ ، ط لاہور باکستان وتاریخ مشائخ حشت خلیق نظامی، ص: ٣ / ، ط دار القلم لاہور ١٦٩ و تاریخ الدعوة للندوی، ص: ٣٠ / ٣٠

١٢. أنظر التفصیل تاریخ الدعوة بالجهاد لعبدالله فهد فلاحی، ص: ٩٣ ط تعمیر إنسانیت لاہور وتذکرة شیخ عبدالحق دھلوی احمد قادری ص: ١٣٩ ، ط الہند، وحیاة الشیخ عبدالحق محدث دھلوی خلیق احمد نظامی، ص: ٣٠ ٢ ، مکتبۃ إسلامیۃ لاہور

١٣. أنظر قواعد الأحكام لمعز بن عبدالسلام: ص: ٢ / ٢٢٩ ، ط دار الشروق بالقاهرة

١٤. تاریخ الفكر الفلسفی للدکتور محمد أبو ریان، ص: ١ / ٢٨٧ ، ط ١٩٧٠ م دار النہضة بیروت

١٥. سورة القصص، الآية: ٧٧

المصادر والمراجع

- تاریخ الدعوة والعزيمة للشيخ أبو الحسن الندوی، ط دار التبشير القاهرة وباکستان.
- تاریخ فیروز شاهی، ضیاء بری، ط لاہور باکستان.
- تاریخ الفکر الفلسفی د. ریان، ط دار النہضۃ بیروت.
- تاریخ مشائخ حشت خلیق نظامی، ط دار القلم لاہور.
- تاریخ الدعوة والجهاد، عبداللہ اللہ فہد فلاحی، ط تعمیر إنسانیت لاہور.
- تذکرة شیخ عبدالحق الدهلوی احمد قادری، ط مکتبۃ إسلامیة لاہور.
- حیاة شیخ عبدالحالق خلیق نظامی، ط مکتبۃ إسلامیة لاہور.
- تاریخ المسلمين فی الهند د. عبدالمنعم النمر، ط القاهرة.
- التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضية رجاحرة مشخصة عموم طرق الصوفية، ط دار الكتب العربي القاهرة.
- سیر الأولیاء، لأمیر خورد، ط دلهی.
- المذاهب والأفکار المعاصرة في التصوف الإسلامي، محمد حسن، دار التبشير طنطا مصر.
- موسوعية التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د أحمد شلبي، دار النہضۃ القاهرة.
- تأثير الکرام فی آثار هندوستان، آزاد بلحرامی، ط دلهی.
- نزهة الخواطر، عبدالحی لکھنؤی، ط دلهی وحیدر آباد.
- قواعد الأحكام، لعز بن عبدالسلام، ط دار الشروق القاهرة.
- الکامل لابن أثیر، ط بولاق القاهرة.

